Journal Of the Iraqia University (76-4) 31 July (2026)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

تشظي الذّات والبحث عن الملاذ رواية (هروب إلى الضفة الثالثة) لمناضل عناد نموذجاً

م. د. بشير إبراهيم أحمد عويد سوادي
المديرية العامة لتربية صلاح الدين

Self-Fragmentation and the Search for Sanctuary: Munadhil Inad's Novel "Escape to the Third Bank" as a Case Study

Dr. Bashir Ibrahim Ahmed Owaid Sawadi Lecturer
The General Directorate of Salah al-Din Education
Dr.b.swady@gmail.com

ملخص البحث:

يسلّط هذا البحث الضوء على إشكالية تشظي الذّات والبحث عن الملاذ في رواية هروب إلى الضفة الثالثة للأديب مناضل عناد، متتبعاً رحلة النفس البشرية بين عوالم الضياع والأمل من خلال ثلاثة مباحث رئيسية.

- المبحث الأول (الضفة السوداء): يستعرض سردية الألم والضياع التي تعيشها الشخصيات تحت وطأة الأزمات والتمزق النفسي.
- المبحث الثاني (الضفة البيضاء): يتناول شخوص الذاكرة العابرة بوصفها محاولات لاستدعاء الماضي والتمسك بومضات الأمل المفقود.
- المبحث الثالث (الضفة الثالثة): يحلل جدلية الخلاص والعدم، حيث تتأرجح الذات بين الرغبة في التحرر والانعتاق، ومواجهة مصيرها العدمي.

يكشف البحث في ختامه عن أبعاد التجربة الإنسانية المغتربة في الرواية، وكيفية صياغة الكاتب لصور التشظي النفسي وسعي شخوصه الدؤوب نحو ملاذٍ افتراضي يتجاوز ثنائية الواقع المرير.

الكلمات المفتاحية: تشظي الذات، الملاذ، هروب، الضفة الثالثة، مناضل عناد.

Abstract:

This research highlights the problematic issue of the fragmentation of the self and the quest for a sanctuary in the novel *Escape to the Third Bank* (Huroob ila Al-Daffah Al-Thalithah) by the author Munadhil Inad. It tracks the journey of the human soul between the worlds of lostness and hope through three main sections.

- Section I (The Black Bank): Examines the narrative of pain and lostness experienced by the characters under the weight of crises and psychological rupture.
- Section II (The White Bank): Explores the characters of fleeting memory as attempts to summon the past and cling to the flashes of lost hope.
- Section III (The Third Bank): Analyzes the dialectic of salvation and nothingness, where the self vacillates between the desire for liberation and emancipation, and confronting its nihilistic fate.

In its conclusion, the research reveals the dimensions of the alienated human experience in the novel, and how the author shapes the images of psychological fragmentation and his characters' relentless pursuit of a virtual sanctuary that transcends the duality of a bitter reality.

Keywords: Fragmentation of the self, Sanctuary, Escape, The Third Bank, Munadhil Inad.

توطئة: في مفهوم تشظي الذّات والبحث عن الملاذ.

إن حرقة الاغتراب التي يعيشها الإنسان المعاصر تولّد في أعماقه انقساماً حاداً يفصل روحه عن واقعها، مما يدفع بالوعي نحو دهاليز التشتت والضياع، وأمام هذا التفتت النفسي والوجودي، تشرع الذات في رحلة مضنية للبحث عن واحة أمان تنقذها من الانهيار التام، حيث يصبح تلمّس الملاذ وسيلة حتمية لإعادة ترميم الشروخ الداخلية واستعادة الكينونة المفقودة وسط ركام العصر.بالعودة إلى الجذور اللغوية، نجد أن لفظة تشظي قد وردت تحت جذر مادة (ش.ظ.ى)، حيث تشير في دلالتها إلى الشظي من الناس وهم الموالي والتباع، وشظي القوم أي خلاف صميمهم،

والمقصود بهم الأتباع والدخلاء عليهم بالخلف؛ كما يعني تشظي الشيء تفرقه وتشققه وتطايره شظايا (ينظر: منظور، ١٩٩٤: ٤٣٤)، أما لفظة الذات، فقد وردت تحت جذر مادة (ذ.ا.ت) لتشير إلى النفس والشخص؛ ويقال في النقد الأدبي إن نقد فلان ذاتي إذا كان يرجع إلى آراء الشخص وانفعالاته وخلفياته النفسية، وهو ما يمثل خلاف المفهوم الموضوعي، كما يقال جاء فلان بذاته أي عينه ونفسه (ينظر: منظور، ١٩٩٤: ٤٣٤)، وعند النظر إلى العلاقة الاصطلاحية بين التشظي والذات، فإن الآراء النقدية والفلسفية تكشف عن رابطة رصينة ومتينة بينهما؛ فالذات حين توضع في مواجهة عنيفة مع العالم والمجتمع، تجد نفسها عاجزة عن تقبل الكثير من التحولات المحيطة بها، مما يثير في أعماقها مكامن الحيرة، والاضطراب، والشك، وفي هذا المأزق تقف الذات أمام خيارين لا ثالث لهما: إما الاستسلام للواقع والتعايش معه سلماً، وإما الولوج في فوضى الحواس المطلقة، لتتحول آنذاك إلى ذات متقرِّحة ومتشظية تجاهد بكل ما أوتيت من قوة لإدراك كينونتها وتحديد مفهوم واضح لوجودها.إن الواقع المعاصر يتسم بحالة حادة من الاضطراب الوجودي، التي تتجلى بوضوح في مظاهر الضياع، والفقد، والتلاشي، فضلاً عن تفاقم الأزمات المصيرية المتلاحقة التي تواجه الإنسان، وما يرافقها بالضرورة من اهتزاز عميق في منظومة القيم، وتفكك حاد في البنية الجمعية للذات، وتراجع ملحوظ في فاعلية المنطق بوصفه أداة لتفسير العالم وفك شفراته، وقد انعكست هذه التحولات الوجودية بصورة مباشرة على الخطاب الروائي المعاصر، الذي أخذ يبتعد –إلى حد كبير– عن النمط الخطي التقليدي في البناء السردي.وبناءً على ذلك، تعرض الشكل الواقعي الكلاسيكي القائم على السرد المتتابع الملتزم بمنظور أحادي والطامح إلى الإمساك بالواقع في تجلياته التفصيلية ومنطقه المرئي، إلى اهتزاز عميق بفعل جملة من التحولات والأحداث العاصفة التي أسهمت في زحزحة هذا التصور التقليدي المستقر للواقع، وإعادة تشكيله ضمن رؤى فنية وفلسفية أكثر تعقيداً وتشظياً، حيث تشتعل الذات الروائية في إنجاز نوعها السردي، إذ تقدم شهادتها الحضارية المعبرة عن موقف فكري أصيل تجاه العصر، وعن فلسفة مكثفة، مركزة، ونوعية، تعيد إنتاج جوهر الذات وألوانها الداخلية إنتاجاً إبداعياً يتجلى في تنوع أسلوبيات تقديم هذه الذات بتنوع بنيتها العضوية (ينظر: أ. د. عبيد، ٢٠٠٥: ٣٤)، حيث تبرز ذاكرة الذات بوصفها التجربة المتحققة بمعنًى تتأثر بقوته أعماق الروح، تلك الروح التي تتوهّم عبر هذا المعنى فتلوذ بالذاكرة وتحتمي بها؛ كما أن للذاكرة كتاريخ دلالة عميقة، لأن الأفعال الإنسانية هي المصدر الأساس لإنتاج المعنى، وتستمر هذه المعاني في التدفق عبر أجيال متعاقبة، حيث يتم الشعور بهذا الاستمرار في تجربة الإنسان للزمن باعتباره بناءً منظماً يتألف من مستقبل، وحاضر، وماضٍ، وهو مفهوم يتجاوز بكثير مجرد التتابع المتسلسل؛ إذ إن تجريب الزمن بوصفه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً يرفض الاكتفاء به كسلسلة من الآنات المتلاحقة ذات الحجم الواحد والدلالة المشتركة (ينظر: ريكور ١٩٩٩: ٢٠١)وتجدر الإشارة هنا إلى الفرق الجوهري بين التأريخ للوقائع وبين تسجيلها؛ فالذاكرة تمثل قراءة واعية لتلك الوقائع التي تعيشها الذات بكل تقلباتها الصعبة، ولما لهذه التقلبات من أثر بالغ، فإنها تبرز الاختلاف القائم بين الذات والآخر بأشكاله المتعددة، كما تُظهر الخلاف الواجب والضروري بين ما كان في الواقع وما يمكن أن يكون في المستقبل، وبين ما كان فعلاً وما ينبغي أن تصل إليه الذات من غايات وطموحات تحقق كينونتها، فالصراع والتشظي يظلان قائمين ومستمرين بفعل سطوة التاريخ، حيث تجتذب التناقضاتُ الذواتِ والطبقاتِ باتجاهات متباينة تؤثث لقابلية الفقد، وتضع الذات في مأزق الاستلاب القهري الخارج عن حدود إرادتها، إذ يصبح للذاكرة –كزمن متذكَّر– هيمنة مطلقة على الذات (ينظر: واتس، ١٩٨٦: ١٢٦)؛ لأنها تستبقي في وعيها حادثة ما، أو تلميحاً عن نظام اجتماعي بائد ما يزال قريباً في البعد الزمني، إلا أنه يختلف تماماً ويفترق عن الواقع المعيش في الحاضر (ينظر: واتس، ١٩٨٦: ١٢٦)، حيث يتجلى تمايز معرفي دقيق بين مفهومي الأنا والذات لدى ثلة من كبار المنظرين، يأتي في طليعتهم بول ريكور وكارل غوستاف يونغ، إذ يذهب ريكور إلى عدم مطابقة الذات للأنا مطابقة تامة، مؤكداً أن مقاربة مفهوم الذات لا تعني بالضرورة الإحالة على الأنا ذاتها (ينظر: ريكور، ٢٠٠٥: ٣٦١)؛ وبحسب ما قُدّم، فإن تشظي الذات يعد مفهوماً أكثر شمولاً واستيعاباً، إذ تأتي الأنا كصفة من صفاتها أو كجزء يتجزأ منها، فبينما يؤدي خلط المعنيين إلى تداخل ضبابي يفقد التمايز قيمته المعرفية، فإن الفصل التام بينهما يجرد الذات من هويتها وصفاتها الجوهرية، وهذا المأزق يضعنا في النهاية أمام المقاربة الريكورية الشهيرة التي ترى في الذات عينها كآخر، سواء أكان هذا الآخر فردياً أم جمعياً، حيث تعمل الذات على توظيف هواجسها وانكساراتها في العملية الشعرية والإبداعية كحل ممكن لاسترداد ما ضاع وتشتت منها (ينظر: ريكور، ٢٠٠٦: ١٠)؛ وهذا يعني بالضرورة أن الأنا تمثل هوية الذات، وأنها الغطاء المسؤول عن هذه الهوية حين تقوم الذات بالاحتكاك والمثاقفة مع المحيط المعيش الخارجي لها.أما عالم النفس كارل يونغ، فيذهب في اتجاه مغاير يعترِف فيه بكونهما بنيتين مستقلتين تماماً، بل إنه يوسع الفجوة المعرفية بينهما لتصبح المسافة الفاصلة بين الأنا والذات كالمسافة الشاسعة بين الشمس والأرض (ينظر: يونغ، ١٩٩٧: ٥٨)، إذ يرى استحالة الخلط بين المفهومين؛ فالذات عنده تمثل كياناً حيوياً يفوق الأنا تنظيماً واتساعاً، إذ تحتضن في آن واحد النفس الواعية والنفس الجمعية، لتُشكّل بذلك شخصية أوسع نطاقاً وأرحب مدى تُمثّل النحن (ينظر: يونغ، ١٩٩٧: ٩٤)، وبهذا لا تقتصر الذات على الأنا الفردية الضيقة فحسب،

بل تمتد لتشمل الأنا الجمعية أيضاً، مما يمنح الآخر الجمعي دوراً رئيساً ومحورياً في تشكيل هذه الذات وصياغة أبعادها الوجودية.إن تتبع مسارات التفتت النفسي يثبت أن الانشطار ليس نهاية المطاف، بل هو شرارة الوعي الأولى التي تقود الإنسان نحو البحث عن مركز ثقله المفقود، وعبر هذا الاغتراب يتشكل دافع غريزي جارف يوجه الروح المصابة بالتشظي نحو تلمس مساحات الخلاص والسكينة، لتغدو عملية البحث عن الملاذ في نهاية الأمر، هي المحرك الأساسي الذي يمنح الذات فرصة الولادة من جديد من بين شظايا الواقع الأليم.

المبحث الأول: الضفة السوداء: سردية الألم والضياع.

تُمثّل الضفة السوداء في المتخيّل السردي بؤرة تراجيدية تتكثف فيها معاني الفجيعة الإنسانية، وتتحول عبرها الفضاءات المكانيّة إلى مرايا عاكسة للاغتراب والتمزق النفسي، إذ أنها جغرافية مجازية للألم؛ حيث يفقد الإنسان بوصلته الوجودية، ويغرق في لجة الضياع المستمر بحثاً عن خلاص مستحيل من عذاباته اليومية، وفي هذا الفضاء الموحش، تتلاشى الطمأنينة لتفرز واقعاً مأزوماً يعيد صياغة علاقة الكائن البشري بمحيطه المعزول. ولا تنتهي النظرة السوداويّة في تأثيث المكان بدلالات الخراب والشقاء، من خوفٍ وجوعٍ وذعرٍ؛ فهي أمكنة يتسكّع فيها الجوعى في فراغٍ استلابي قائم، يعبّر عن رغبة حارقة في هروب مستمر إلى الضفة الثالثة، ولما كان لكلّ تجربةٍ إنسانية مسارٌ ونفقٌ تنفذُ مِن عُقدهِ وعتباته مراراً، فإن هذا المسار ينتهي بتأثيث وجوده الخاص الذي يحقق دلالة المكان الحقيقية؛ هذا المكان الذي يعني بدءاً تدوين التاريخ الإنساني في أعمق تجلياته (ينظر: النصير، ١٩٨٦: ٣٩٥)، وتكتمل الصورة الاستلابية القاتمة للمكان حين تُنتزَعُ الروح انتزاعاً من صلتها الوثيقة بفضائها المعيش، وهي تحاول جاهدةً إيجاد توازنٍ حرجٍ يجنّبها فقدان تلك الفاعلية الحيوية للمكان؛ ذلك الفضاء الذي يعني الارتباط الجذري والوثيق بعلّة الكينونة الأساسية لأداء الطقوس اليومية للعيش والوجود، ولفهم الحقائق الصغيرة اللازمة لبناء الروح، وتأمل تراكيبها المعقدة والخفية التي تسعى لصياغة المشروع الإنساني المتكامل (ينظر: النصير، ١٩٨٦: ٣٩٥_٣٩٦)، وبناءً على هذا المشهد المأساوي، فإن القطيعة الوجودية تتحقق بالوجود المادي الملموس، الذي ينعكس فكراً وشعوراً وسلوكاً في تفاصيل الواقع المعيش (ينظر: سليم، ١٩٩٨: ١٢_١٣)، حيث تظل سردية الألم على تلك الضفة السوداء شاهدةً على عمق التآكل الوجودي الذي يصيب الكائن البشري عندما يُفصل عن بيئته الحاضنة، فإن استلاب الأمكنة وتحويلها إلى فضاءات طاردة يجرّد الإنسان من أسلحته الروحية، ويتركه مجرداً أمام قسوة العبث ومتاهات الاغتراب، ليبقى المكان القاتم في نهاية المطاف، تجسيداً مادياً لروحٍ جريحة فقدت مركز استقرارها، وأضحت تتلمس الوجود وسط ركام التلاشي والضياع."حبة قمح.. تودع في رحم الحياة تشرب الضوء الخافت، تنمو بأكل تربتها، الشاطئ كسرة خبز، تقدّسه القوارب، تغتسل كلياً عندما يُذكر اسمه الشاطئ، ولا أدري لماذا لا تؤدي فروض الطاعة أو الانحناء على أقل تقدير ؟!، طهارة في الموج.. حيث يقوم بغسل ما تراكم على قلوب الحصى المجتمعة هنا وهناك من غل وطين. الضفة كفان، تلم ما تناثر من الصرخة الأولى، كهوف مساماتها – الضفة، ودروبها رمال متحركة تغص بها حكاياتها. الضفة السوداء، رؤية تمتد إلى آخر خوف، وتتهاوى في جوف الليل، مساحة لا تسع إلا الأماني المتعفنة، والأخيلة المتهرئة، ما فيها من طقوس هو نوايا لما تصنعه، كل يوم تُوسع جُرح النهر، وما ترفوه كفاها هو خيبتها الدائرية؛ لأنها من هنا بدأت الرؤيا"(عناد، ٢٠٢١: ٦).ينطلق هذا النص من جدلية الوجود والعدم، حيث يستهل برمزية حبة القمح التي تودع رحم الحياة، لكنها عوضاً عن الانعتاق والنمو الطبيعي، فتُحاصر بالضوء الخافت وتتغذى على مأساوية تربتها، كما يتشكل الشاطئ هنا كرمز مقدس تلوذ به القوارب، إلا أنه يظل فضاءً مغترباً ومثيراً للتساؤل حول غياب فروض الانحناء والطاعة، مما يبرز فجوة الوعي والتمرد لدى الشخوص، إذ يغدو الموج أداة للتطهر الطقسي الذي يحاول غسل القلوب مما ران عليها من غل وطين، بيد أن الضفة سرعان ما تتحول إلى قناع مرعب، تتراءى فيه المسامات ككهوف، والدروب كرمال متحركة تبتلع الحكايات الإنسانية وتغص بها، كما تتجلى الضفة السوداء في نهاية النص بوصفها رؤية سوداوية تمتد إلى أقصى حدود الخوف، وتتهاوى في ليل التيه الوجودي، مستحيلة إلى مساحة ضيقة لا تتسع إلا للأماني العفنة والأخيلة المتهرئة. "مشيتُ، وفي كل خطوة فوج من الخطايا يلتصق بقدمي الموغلتين في وجه هذه الأرض بسبب الملاحين الحمقى، لذلك تأخرت في الوصول للحاق بقارب النجاة؛ بل وصلت بسرعة عجيبة إلى الضياع، على الرغم من أنّ المساحة المتشظية في فم الوقت لا تسعني إلا أنها المتنفس الوحيد لي هنا. المحطات خرق للعادة، لا يوجد فيها إلا الصمت الأزرق أجيل بما تبقى لي من نظر مبعثر هنا وهناك... الإتجاهات جميعها لا تتحرك، الأرض أجمل ما فيها الخطأ عندما يمجده الضالون. أمشي.. حيث مساحة واسعة تختبئ فيها منازل تطل منها عجائز أدناها تفوح منها رائحة الطيور المحترقة، وتحط على شباك فمها نسور منسلخة الرقبة، تلتحف السوء، وتكثر من قضم الأظافر، مثبتة عينيها على شيءٍ ما"(عناد، ٢٠٢١: ١١).يجسد هذا النص ذروة التيه الفيزيائي والنفسي، حيث تتحول الحركة والمشي إلى أداة للالتصاق بالخطايا التي تفرشها الأرض الملغومة بفعل الملاحين الحمقى، حيث يقع السارد في فخ تأخر النجاة والوصول السريع والمفاجئ إلى قاع الضياع، ليصبح الوقت فماً يتشظى ويضيق، ورغم ذلك يظل متنفسه الوحيد في هذا العدم، كما تتحول المحطات إلى فضاءات

خارقة للعادة لكنها محشوة بالصمت الأزرق والنظر المبعثر، في إشارة إلى شلل الاتجاهات وثباتها المرعب، فتبلغ السريالية السردية مداها عندما يصبح الخطأ جميلاً وممجداً من قبل الضالين، لتكشف البيوت المختبئة عن شيخوخة الوجود، حيث تفوح رائحة الطيور المحترقة وتحط على النوافذ نسور منسلخة الرقبة، إن هذا المشهد المشوه المليء بالسوء وقضم الأظافر والعيون المثبتة على الفراغ، يعكس بوضوح مناخات الضفة السوداء التي تحول الكائنات إلى مسوخ ينهشها الانتظار المرضي والألم المقيم."على مداخل ما يحتاجه الجميع للتخلص من ذنوب المعدة (الصدقات)، بدأتُ أكتشف المزيد من المسارات الواعدة، وأناقة القتل المفرط في استخدام الأدوات بذكاء؛ لكن.. عليك أن تدفع لمقتضى حاجتك. الهدوء ليس دائماً دليل نقاء. قلت له: أيهما أدفع؟ الباب.. الرئيس؛ أم الرائحة المنبعثة من الصمت؟ سألتني بؤبؤ العين الذي تأكل فيه السنين سنواتها. لكن الرائحة صمتت وقتاً قوياً؛ وابتسمت ابتسامة لفقراء، وبدأت تظهر كأنها تبتسم.. المهم أنني دخلت، ووصلت إلى هنا... كان وضعاً قوياً ومهدماً لرؤيتي. بعضهم يمر ويفتعل ما يشاء، وبعضهم قادم مع سواد الخبز والقرص، وبعضهم من استعان بمخلفاته.. العجيب هو أننا جميعاً في حالة وجع دائمة"(عناد، ٢٠٢١: ١٥).يتحرك هذا النص في فضاء الكشف والتعرية الأخلاقية والاجتماعية، مبتدئاً من مداخل الصدقات التي توصف تهكماً بأنها وسيلة للتخلص من ذنوب المعدة، ليكتشف السارد من خلالها مسارات القتل الأنيق والمفرط الذي يُمارس بذكاء وبثمن مدفوع مسبقاً، حيث ينهار مفهوم الهدوء هنا ليتضح أنه ليس دليلاً على النقاء، بل هو قناع للصمت والتواطؤ، فيدخل السارد في حوارية رمزية حول ما يجب دفعه، هل هو الباب الرئيسي أم الرائحة المنبعثة من الصمت؟ ليتلقى الإجابة من عين تأكلها السنين، ومن رائحة تبتسم ابتسامة لؤم وفقر. "يا قلبي.. قلت في نفسي، وأنا أغادر المكان هذا، وقبل الانحناء.. سألتني: لمن تلوذ؟ لم تجب عن سؤالي؟ بمن تلوذ؟؟؟ يا وجعاً أكلت منه السنين الوجع، مسحتُ وجهي في وجهه.. لا أظن الملاحين سيتركوننا، سألوه، والألف تأكله..... سأتركها، بيدي في هذا المكان. قال لي: – أنت مع من؟ لم أنت هنا؟ أنت ولدت بهدوء.. كان هناك ألم يشبه الصمت!!! كنتُ أملك طقوساً تمنحني أول الطريق في السكن، وتمنحني الأدوات القوية في فوضى الروح، وانبثاق الأناشيد اليابسة في فم الجميع ... ماذا تريد؟ ماذا أنت؟ إنك هنا لا تستطيع أن تبتعد هكذا! أشعر بصداع شديد... كان يتحدث بكل هذه الرياح، تلامسني بوجع وتدمر قبلي"(عناد، ٢٠٢١: ١٧).يتشكل هذا النص كتأنيب وجداني وحوار داخلي مأزوم بين السارد وقلبه، حيث تتداخل الأسئلة الوجودية حول الملاذ والملجأ دون تلمس إجابات شافية في فضاء يلتهمه الوجع وتأكله السنين، حيث يظهر الملاحون هنا كقوة ملاحقة حتمية لا تترك الضحايا، تلتهمهم الحروف والسنوات، إذ يعيد الحوار اللاحق إنتاج أزمة الولادة والوجود؛ فالولادة الهادئة اقترنت بألم يشبه الصمت، مما ينفي أي إمكانية للسكينة الوجودية، حيث يعاني السارد من فوضى الروح وانبثاق الأناشيد اليابسة في الأفواه، وهي كناية عن جفاف منابع الفرح وتحول الكلمات إلى حطام، فيشعر السارد بصداع شديد ناجم عن تلاطم رياح الكلام والأسئلة القسرية التي تمنعه من الابتعاد، لتلامسه هذه الرياح بوجع مقيم يدمر كل بقايا الاستقرار الداخلي قبل أن تبدأ أي خطوة نحو النجاة."الربان يبتسم لكل شيء، يرى الموت جزءاً من حكاية يومية، يرى الألم وسيلة للتحكم. كنتُ أحاول الهروب من فم الوقت الذي ينهشني، لكن الضفة كانت تتسع كلما ركضت. الملاحون ليسوا مجرد بشر، إنهم رموز للقيد، للضياع الذي يلبس ثياب النجاة. قلتُ له مرة: لماذا النهر غاضب؟ ضحك الربان وقال: النهر لا يغضب، النهر يلفظ الغرباء مثلك. نحن هنا أسياد الصمت والألم، وأنت مجرد عابر سبيل فقد طريقه في الظلمة الأولى. شعرتُ حينها أنني لا أملك حتى حق الصراخ، فالصوت في هذه الضفة يرتد إلى الداخل ليخنق صاحبه. كانت الرؤيا تزداد سواداً، وكان الألم ينمو كالعشب البري في رئتي"(عناد، ٢٠٢١: ٢٠).يقدم النص تشريحاً دقيقاً لآليات السلطة والقهر المتمثلة في شخصية الربان والملاحين، فالربان يبتسم للموت بوصفه جزءاً من حكاية يومية، ويتخذ من الألم وسيلة للتحكم والسيطرة وبسط النفوذ، فتتسع الضفة السوداء بشكل كابوسي كلما حاول السارد الركض والهروب من فم الوقت الذي ينهشه، مما يعكس عبثية الحركية في فضاء مغلق، حيث يرتدي الملاحون ثياب النجاة لكنهم في الجوهر رموز للقيد والضياع، ويتضح الغضب النهري هنا ليس كفعل طبيعي؛ بل كآلية لفظ وطرد للغرباء الذين ضلوا طريقهم في الظلمة الأولى، كما يتجرع السارد في هذا الفضاء قمة المأساة عندما يُحرم حتى من حق الصراخ، فالصوت يرتد إلى الداخل ليتحول إلى أداة خنق ذاتي، بينما ينمو الألم كالعشب البري في الرئتين موازاةً مع اسوداد الرؤية وتلاشي بؤر الضوء."اسمه (نالر).. في ظاهره أنه يعاني من شيء ما، وفي باطنه العذاب، كل شيء لديه يراه أسود.. (نالر)...! لا ينبغي أن يبتعد عن أوجاع الآخرين، ينجذب لمسامات الوجع، ليكون قريباً منها، وصديقاً لها، وربما كان هو السبب في بعض أوجاعنا، الهدوء الذي كان يمتلكه ليس إلا صدى لما يعانيه من الأمور، فقد جلب له الموت، ولأولاده وأحفاده التشريد والمزايدة على النفس المقدسة، واستجداء العطف، ومجاملة المشوهين، وابتسامة الممسوخين. لا بد أن أستيقظ، أبصر كل شيء آخر، أشاهد العالم الثابت والمتحرك، أحاول تقديم الخطوات إلى الأمام، أميز الوجوه التي ملأت الكفين بالانتظار، بقيت مؤجلاً على هواجسي المتوجسة"(عناد، ٢٠٢١: ٥٦).يتمحور النص حول شخصية مركبة تُدعى (نالر)، وهي شخصية تختزل المعاناة الإنسانية في باطنها وظاهرها، حيث يتشح كل شيء لديه بالسواد المطلق، حيث ينجذب (نالر)

لمسامات الوجع ليكون صديقاً لها، بل إنه يتحول إلى سبب في إنتاج أوجاع الآخرين، ليكون هدوءه مجرد صدى لعذاباته الداخلية التي جلبت الموت والتشريد والمزايدة على النفس المقدسة لأولاده وأحفاده، يرصد النص مظاهر السقوط الأخلاقي من خلال استجداء العطف، ومجاملة المشوهين، وابتسامات الممسوخين التي تملأ الفضاء، حيث يمثل القسم الأخير من النص محاولة وصحوة من السارد للانعتاق ورغبة في إبصار العالم الثابت والمتحرك وتقديم الخطوات للأمام وتمييز الوجوه، إلا أن هذه الرغبة تظل مكبوحة ومؤجلة بفعل الهواجس المتوجسة التي تشل الحركة وتبقي الكفين مليئتين بالانتظار العبثي."هم أنفسهم الذوات المتحركة، المتصلون من تلك الجلود، هم من أوقفوا جرحاً يأكل بمساماتها، هم الأداة الحديثة للانتقام منا.. هؤلاء هم سلالة السوء... تتداخل الأحداث، تختلط الأوراق، عقلي يتشظى في هذه الذاكرة التعبة... ماذا يحدث لي؟!!! لماذا يزداد سواد المكان كلما اقتربت من الحقيقة؟ إنها خيبة الغالبية، مكتوب عليهم بنفس الأدوات المقيتة والنوايا السوداء... لماذا يزداد الألم في الضفة السوداء؟ هل لأننا تعودنا عليه؟ أم لأن المكان صار جزءاً من جلودنا التي نغيرها كل يوم لنخفي ندوبنا؟ أشعر أنني أنهار، وأن الضفة تبتلعني ببطء"(عناد، ٢٠٢١: ٤٠).يكشف هذا النص عن تماهي الذوات المتحركة مع أدوات الانتقام الحديثة، حيث يتنصل هؤلاء من جلودهم الإنسانية ليعلنوا انتمائهم إلى سلالة السوء التي توقف الجروح تارة وتقتات عليها تارة أخرى، حيث تتداخل الأحداث وتختلط الأوراق ليتشظى عقل السارد في ذاكرة متعبة ومثقلة بالانكسارات، إذ يطرح النص تساؤلاً جوهرياً حول سبب ازدياد سواد المكان كلما اقترب المرء من الحقيقة، ليتضح أن الأمر يمثل خيبة الغالبية المحكومة بنوايا سوداء وأدوات مقيتة، حيث يتحول الألم في الضفة السوداء إلى ما يشبه العادة البيولوجية أو جزءاً من الجلود التي يتم تغييرها يومياً لإخفاء الندوب العميقة."كل شيء في هذه الضفة مؤجل، حتى الموت نفسه ينتظر إذناً من الملاحين. نعيش في حالة من الترقب المر، ننتظر قارباً قد لا يأتي أبداً. الضياع ليس مجرد فقدان للطريق، بل هو فقدان للرغبة في الوصول. رأيتُ وجوهاً في الزحام، وجوهاً بلا ملامح، قد مسحتها رطوبة النهر وسواد الليل. كانوا يهمسون بكلمات غير مفهومة، ربما هي لغة الألم التي لا يفهمها إلا من سكن هنا طويلاً. في الضفة السوداء، الحقيقة هي أول ضحية، والوهم هو السيد المطاع. كيف يمكن للذات أن تتماسك وهي ترى انعكاسها في ماء النهر معتماً ومكسوراً؟ لا إجابة، سوى الصمت الذي يلفنا كالكفن"(عناد، ٢٠٢١: ٦٥).يرسخ هذا النص مفهوم التأجيل الوجودي في الضفة السوداء، حيث يصبح حتى الموت معلقاً بقرار من الملاحين، ويعيش الشخوص حالة ترقب مر لقارب نجاة لن يأتي أبداً، إذ يعيد النص تعريف الضياع بوصفه ليس فقداناً جغرافياً للطريق فحسب، بل هو فقدان للرغبة في الوصول وانطفاء لجذوة الإرادة، حيث تزدحم الضفة بوجوه بلا ملامح، مسحت هويتها رطوبة النهر وسواد الليل، وصارت تهمس بلغة الألم التي لا يفهمها سواه القاطنون في هذا العدم، إذ تغدو الحقيقة الضحية الأولى في هذا الفضاء الكابوسي، بينما يتربع الوهم سيداً مطاعاً، ويسائل السارد قدرة الذات على التماسك وهي ترى انعكاسها المعتل والمكسور في ماء النهر العتم، ليأتي الكفن على هيئة صمت يلف الجميع ويعلن النهاية الحتمية لهذا التلاشي."الريح في الضفة السوداء ليست ريحاً، بل هي أنين الموتى الذين لم يجدوا قبوراً. كل شيء يهمس بالرحيل، لكن الأقدام ثقيلة كأنها مربوطة بسلاسل من حديد. الضياع يسكن في العيون، وفي تجاعيد الوجوه المتعبة. الملاحون يبتسمون ابتسامات صفراء، يوعدوننا بالضفة الأخرى وهم يسحبوننا إلى قاع النهر. الألم هنا صار عادة، والتنفس صار عبئاً. لماذا نحن هنا؟ لماذا اخترنا هذا الطريق؟ ربما لم نختار، بل سقطنا في الظلمة الأولى كما قال الربان. نحن شظايا مبعثرة على شاطئ من طين وغل، ننتظر معجزة لن تأتي، في مكان لا يؤمن بالمعجزات"(عناد، ٢٠٢١: ٨٨).يختتم هذا النص السردية برسم مشهد كابوسي ونهائي عن الطبيعة الفيزيائية للضفة، فالريح هنا ليست ظاهرة طبيعية بل هي أنين الموتى الذين حُرموا حتى من المقابر، وتتحول الأقدام إلى كتل ثقيلة مربوطة بسلاسل من حديد تعجز عن الرحيل، حيث يسكن الضياع في تجاعيد الوجوه المتعبة، في حين يمارس الملاحون خداعهم الأخير بابتسامات صفراء ووعود كاذبة بالعبور نحو الضفة الأخرى، بينما هم يسحبون الضحايا إلى القاع الطيني، فيتحول التنفس إلى عبء ثقيل، والألم إلى عادة يومية، ليعود السؤال الاستنكاري حول سبب الوجود والاختيار، ويأتي الجواب بالوقوع الحتمي في الظلمة الأولى، ويتشظى الكائن الإنساني هنا كبقايا مبعثرة على شاطئ من طين وغل، منتظراً معجزة مستحيلة في فضاء كافر بالمعجزات، مما يغلق دائرة الألم والضياع بإحكام كامل.

المبحث الثاني: الضفة البيضاء: شخوص الذاكرة العابرة.

تُمثّل الضفة البيضاء فضاءً ناصعاً وملاذاً واقياً تنبعث فيه شخوص الذاكرة العابرة لتنقذ الذات من تشتتها وضياعها الوجودي، إنها جغرافية من النور والوعي المترابط، تستدعي فيها الذات صور الماضي الحية وملامح العابرين لترميم تصدعات الحاضر وبناء جسور العودة إلى الكينونة المستقرة، إذ تتحول الذاكرة إلى قوة مقاومة تؤنث الذات وتمنح شخوصها العابرة حضوراً أبدياً يحمي الروح من الفقدان والعدم والنسيان، ومن بين محاولات التصدي للاستلاب القهري، تبرز المغادرة الواعية نحو الذاكرة كفاعل داخلي حيوي للأنا، يعمل على تأثيثها وحمايتها كلما شتّتها الضغط العنيف المسلّط عليها من محيطها الخارجي المنتهِك؛ إذْ إن الذاكرة هي الخصوصية الفريدة التي تشكلها الذات بارتباطها العضوي بالزمن، حيث

تتحسس من خلالها تأثير الوقت الذي لا يمكن لشيء أن يمحوه (ينظر: لوبوك، ١٩٨١: ٥٧)، فتصبح الذاكرة عنصراً مهماً ومحورياً في توجيه الذات، وإخضاعها لمؤثرات تتفاوت سطوتها في النفس على قدر تفاوت وتنوع فحوى هذه الذاكرة بوصفها مادة مسترجعة؛ ذلك لأن وقوعنا كذوات تحت سطوة فكرة أن الماضي الحقيقي هو الذي مر وانقضى وليس لنا عليه أي سلطان يضعنا في مأزق وجودي (ينظر: ريكور، ٢٠٠٩: ٤٥٠)، إذ إن انغلاق الأنا على ذاتها وتقوقعها يعود بها مباشرة إلى مربع العدميّة (ينظر: حيدر، ٢٠٠٨: ٨٨)، ومن خلال هذا الإكراه النفسي والواقعي يتحقق البؤس الإنساني والعدم الفكري.حيث تبقى الأنا في هذه الحالة خاضعة تماماً تحت قوة ما تحقق بالفعل من أفعال الماضي، ليكون كل ما سيتحقق لاحقاً في المستقبل مجرد بُعدٍ سلبي أو إيجابي لما تم إنجازه في ذلك الماضي؛ ولا يعني هذا بالضرورة أن لكل ما مضى سطوة فاعلة وتأثيراً مطلقاً في الذات، بل إن التركيز هنا ينصب على الماضي المؤلم الذي يظل قوة قاهرة مخضعة للذات ولما يحيط بها من فضاءات وعلاقات، إذ تُمثّل أزمة حقيقية لحياة مهددة بالتحطم في كل مرة يتحقق فيها الماضي عبر عملية التذكر الواعي، الذي قد ينفجر وينبثق إلى وعي الإنسان في أي زمان ومكان دون إنذار مسبق (ينظر: ميرهوف، ٢٠٠١: ١٥)، فحين تتقيد الذات وتتلاشى وتفقد فرصة التحول والتجدد، عندها فلن تصدُق أبداً مقولة أن التاريخ هو تطور الروح صاعداً داخل الإنسانية (ينظر: ميرهوف، ٢٠٠١: ١٥)؛ فالذات في هذا السياق تُختزل وتُحجم في مجرد فكرة عابرة، أو أيديولوجيا ضيقة، أو تحت سطوة تابو (محرم) معيّن، ليصبح الاستلاب هنا هو التحقق الممكن والواقعي لا المستحيل.بهذا فإن الذاكرة هي التجربة المتحققة بمعنًى عميق تتأثر بقوته أعماق الروح، وهي الروح ذاتها التي تتوهّم من خلال هذا المعنى المرجعي فتلوذ بالذاكرة وتستظل بها؛ كما وأنّ للذاكرة كتاريخ مكتوب معنى حيوياً، لأنّ الأفعال الإنسانية هي التي تنتج المعنى في أصله، وتستمر هذه المعاني في التدفق والتوارث على مدى أجيال متعاقبة، وبالتالي يتم الشعور بهذا الاستمرار التاريخي في تجربة الإنسان الحية للزمن باعتباره بناءً منظماً ومترابطاً يتشكل كمستقبل وحاضر وماضٍ، وهو أمر يفوق بكثير مجرد التتابع الآلي المتسلسل؛ إذ إن تجريب الزمن بوصفه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً يرفض الاكتفاء بالوقت كسلسلة متلاحقة من الآنات المتساوية ذات الحجم الواحد والدلالة المشتركة (ينظر: ريكور ١٩٩٩: ٢٠١).وتجدر الإشارة هنا بوضوح إلى الفرق الجوهري القائم بين التأريخ للوقائع المجردة وبين تسجيلها الآلي؛ فالذاكرة تمثل قراءة نقدية واعية لتلك الوقائع الصعبة التي تعيشها الذات بكل تقلباتها وتحولاتها، ولما لهذه التقلبات من أثر بالغ، فإنها تبرز الاختلاف القائم بين الذات والآخر بأشكاله المتعددة، كما تُظهر الخلاف الواجب والضروري بين ما كان في الماضي وما يمكن أن يكون في المستقبل، وبين ما تحقق فعلاً وما ينبغي أن تصل إليه الذات من غايات وطموحات كبرى تحقق كينونتها، وهو أمر ضروري ومُلزِم لها، فالصراع يظل قائماً بفعل سطوة التاريخ، حيث تجتذب التناقضاتُ الحياتية الذواتِ والطبقاتِ باتجاهات متباينة تؤثّث لقابليّة الفقد والتملّك، مما يوقع الذات في فخ الاستلاب القهري الخارج تماماً عن إرادتها الحرة، إذ يصبح للذاكرة –باعتبارها زمناً متذكَّراً– هيمنة مطلقة وسلطة عليا على الذات وشخوصها العابرة (ينظر: واتس ١٩٨٦: ١٢٦)؛ لأنها تستبقي في وعيها الحي حادثةً ما، أو تلميحاً ذكياً عن نظامٍ اجتماعيٍ قديم ما يزال قريباً في البعد الزمني، إلّا أنه يختلف تماماً ويفترق في جوهره ودلالته عن الواقع المعيش في الحاضر (ينظر: واتس ١٩٨٦: ١٤٧).فتتجلى الضفة البيضاء كأفق معرفي وجمالي يلم شتات الإنسان ويعيد ترتيب شخوص ذاكرته العابرة في سياق زمني منظم، فمواجهة الاستلاب والعدمية لا تتحقق إلا بجعل الماضي جسراً للمستقبل، وقراءة الوقائع برؤية واعية تحرر الأنا من قيود التابوهات والأيديولوجيات الخانقة، لتبقى الذاكرة الحصن الروحي الأخير الذي تلوذ به الذات لتصنع معناها الخاص، وتستعيد طموحاتها وغاياتها الأصيلة وسط عالم مليء بالتناقضات والتحولات."الذاكرة.. معجزتنا الصغيرة... تخدعنا.. حين تغلف ماضينا الغائب بهذا الكم الهائل من الحضور والجدة.. فهي إذاً الألم... فخنا الكبير الذي يبقينا سجناء وادعين تحت سياط بول ريكور (الذاكرة التاريخ النسيان). الذاكرة هي الضفة التي لا نصلها إلا بالرحيل عما نحن فيه، هي المكان الأبيض الذي يسكننا حين نسكن الكلمات، وهي الملاذ الذي نهرب إليه من سواد الحاضر. كلما أوغلنا في النسيان، استيقظت فينا شخوص الذاكرة العابرة لتعيد رسم ملامحنا القديمة، تلك الملامح التي لم يعد النهر يعرفها. نحن نسكن الذاكرة لأننا فقدنا السكن في الواقع، ونجد فيها وجوه الأحباء الذين رحلوا قبل أن تدركهم لعنة الملاحين"(عناد، ٢٠٢١: ٧).ينفتح النص على قراءة سيميائية معمقة للذاكرة بوصفها معجزة ومأزقاً في آن معاً، فهي تمنح الماضي الغائب تجدداً وحضوراً يربك الذات الراهنة، إذ يتجلى هذا الحضور بوصفه فخاً كبيراً يستعبد الكائن الإنساني ويوقعه تحت وطأة ثلاثية بول ريكور (الذاكرة، التاريخ، النسيان)، حيث يتحول الانتماء للماضي إلى سجن وادع يُجلد بسياط الحنين، وتتشكل الضفة البيضاء في هذا السياق كبنية مكانية متخيلة وملاذ أبيض يسكن الكلمات هرباً من قتامة الحاضر وسواده وتكشف المفارقة السردية عن يقظة شخوص الذاكرة العابرة كلما أوغل السارد في النسيان، ليعيدوا رسم الملامح القديمة التي أنكرها النهر وتغيرت ملامحها بفعل الزمن، إن الانتقال التام للسكن في الذاكرة يعكس فقداناً حقيقياً للمأوى في الواقع الموضوعي، واستدعاءً لوجوه الأحبة الراحلين كآلية دفاعية لحمايتهم من تشويه لعنة الملاحين، مما يرسخ الاغتراب الوجودي الذي تعيشه الشخصية."يا قلبي.. كنتُ أملك طقوساً

تمنحني أول الطريق في السكن، وتمنحني الأدوات القوية في فوضى الروح، وانبثاق الأناشيد اليابسة في فم الجميع. تلك الطقوس كانت تنبع من بياض الضفة الأولى، من حكايات الجدات التي كانت تملأ رؤوسنا قبل النوم. كانت الأناشيد رطبة، والقلوب لا تعرف الغل والطين. أتذكر كيف كانت الضفة كفان، تلم ما تناثر من الصرخة الأولى، وتحمينا من رمال الدروب المتحركة. أين ذهبت تلك الأدوات؟ وكيف تلاشت الأناشيد في زحام المرفأ؟ نحن نلوذ بالذاكرة لنستعيد تلك الأناشيد، لنرمم أرواحنا التي تشظت بفعل رياح الوجع التي تهب علينا من كل اتجاه"(عناد، ٢٠٢١: ١٧)يكرس هذا النص ملامح التضاد السيميائي بين طقوس الماضي القوية وأناشيده الرطبة، وبين فوضى الروح والأناشيد اليابسة التي تجتاح أفواه الحاضر، ويستدعي السارد بياض الضفة الأولى وحكايات الجدات كمرجعيات تأسيسية شكلت وعيه الطفولي قبل أن يدهمها دجل الواقع، وتبرز صورة الضفة كفان كاستعارة سيميائية مكثفة تلم شتات الصرخة الأولى وتحمي الكائن من الانزلاق في الرمال المتحركة للدروب؛ وهي إشارة واضحة إلى الأمان الوجودي والمكاني المفقود، حيث يطرح النص أسئلة استنكارية حول مصير تلك الأدوات القديمة وكيفية تلاشي الأناشيد في زحام المرفأ، معلناً الوفاة الرمزية لزمن الصفاء."اسمه (نالر).. في ظاهره أنه يعاني من شيء ما، وفي باطنه العذاب، كل شيء لديه يراه أسود.. لكنه كان جزءاً من تلك الذاكرة التي لا تنطفئ. كان (نالر) يمثل وجه الوجع الصامت في الضفة البيضاء، الوجع الذي لم يكن قد تحول بعد إلى ضياع كامل. نتذكره كشخصية عابرة تركت ندبة في الروح، ندبة نلمسها كلما اقتربنا من النقاء. هؤلاء الشخوص هم الذين يربطوننا بالأصل، يذكروننا بأننا كنا بشراً نملك القدرة على الشعور بالألم قبل أن نتحول إلى كائنات ممسوخة تبتسم للمشوهين. (نالر) هو صدى لما نعانيه، وهو المرآة التي نرى فيها انكسارنا الأول الذي بدأ هناك، في رحاب البياض"(عناد، ٢٠٢١: ٧٩).تتبدى شخصية (نالر) في هذا النص كبنية مركبة تختزل تداخل السواد والبياض في فضاء الذاكرة الروائية، حيث يمتزج ظاهره المعتل بعذابه الباطني المستمر، وعلى الرغم من رؤيته السوداوية، يظل نالر جزءاً جوهرياً من الضفة البيضاء، مجسداً وجه الوجع الصامت والبدائي الذي لم يسقط بعد في هاوية الضياع المطلق، حيث يتحول هذا الشخص العابر إلى ندبة في الروح تذكر السارد بنقائه الأول كلما حاول الاقتراب من جوهر الإنسانية قبل زمن المسوخ الذين يبتسمون للمشوهين، وسيميائياً يمثل نالر المرآة الوجودية التي يرى فيها السارد انكساره المبكر الذي نبتت بذوره في رحاب البياض نفسه، إن وجود شخصية متألمة داخل الضفة البيضاء يثبت أن الشروخ الوجودية كانت كامنة في أصل التكوين، مما يجعل البحث عن الخلاص سيرة ذاتية مستمرة لا تنتهي."أجيل بما تبقى لي من نظر مبعثر هنا وهناك... أبحث عن وجوه الأهل في وجوه الغرباء. أتذكر البيت القديم، حيث كانت المحطات ليست خرقاً للعادة، بل كانت مواعيد للفرح. هناك، كانت الوجوه تملك ملامح، والعيون لا تنام على خوف. الضفة البيضاء هي ذلك التجمع العائلي حول مائدة بسيطة، هي صوت الضحكات التي لم تكن تخنقها رائحة الطيور المحترقة. نحن نعيش على فتات تلك الذكريات، نمضغها بمرارة لنشعر بأننا ما زلنا أحياء. شخوص الذاكرة العابرة يمرون أمامنا كالأشباح، يلوحون لنا من بعيد، لكننا لا نستطيع الوصول إليهم، لأن المسافة بيننا وبينهم هي مسافة الهروب"(عناد، ٢٠٢١: ١١)يتأسس هذا النص على جدلية الرؤية والفقدان، حيث يعبر النظر المبعثر للسارد عن حالة من التشتت النفسي وهو يبحث عن ملامح الأهل في وجوه الغرباء الجافة، ويسترجع النص سيميائية البيت القديم والمحطات التي كانت مواعيد للفرح لا خرقاً مرعباً للعادة، مما يؤكد عمق الاستقرار الروحي والمكاني المفقود، فتتجسد الضفة البيضاء هنا في صورة تجمع عائلي حول مائدة بسيطة، متعالية بصوت ضحكاتها النقية على روائح الطيور المحترقة التي تزكم حاضر المدينة، حيث يعيش السارد في واقعه على فتات هذه الذكريات، ويمضغها بمرارة ليثبت لنفسه أنه لا يزال على قيد الحياة وسط هذا الموت السريري."سألتني بؤبؤ العين الذي تأكل فيه السنين سنواتها.. من أنت؟ قلت لها: أنا صدى لذكرى بيضاء تلاشت في زحام الضفة السوداء. أنا الذي كان يملك وطناً ينتظره ليحبه، وأصبح الآن غريباً حتى عن نفسه. شخوص الذاكرة الذين سكنوا طفولتي يطالبونني بالعودة، يهمسون في أذني بأسمائهم القديمة: (أحمد، علي، ليلى..). أسماء تلاشت ملامح أصحابها، لكن بقيت رائحتهم عالقة في ثيابي. الذاكرة تخدعنا لأنها تجعلنا نرى هؤلاء الشخوص كأنهم هنا، بينما هم قد غرقوا في قاع النهر منذ زمن طويل. نحن نبحث عن الملاذ في وجوههم، فلا نجد إلا صمتاً أزرق يشبه الموت"(عناد، ٢٠٢١: ١١٤).يجسد النص تجليات تشظي الهوية من خلال الحوار الرمزي مع بؤبؤ العين الذي يلتهم سنوات العمر، حيث يُعرّف السارد نفسه بأنه مجرد صدى لذكرى بيضاء جرفها زحام الضفة السوداء، إذ يبرز الفقد الوجودي في التحول من كينونة إنسان يملك وطناً ينتظره ليحبه، إلى كائن غريب تماماً عن ذاته ومحيطه، فتحضر شخصيات الطفولة العابرة بأسمائها الصريحة (أحمد، علي، ليلى) لتمثل الذاكرة الجمعية المفقودة، ورغم تلاشي ملامحهم الجسدية، فإن رائحتهم تظل عالقة في ثياب السارد كعلامة سيميائية على الحضور المستمر، فيدرك السارد خداع الذاكرة التي توهمه بوجودهم، في حين أنهم غرقوا في قاع النهر اللامرئي منذ زمن بعيد."المسافة بيننا وبينهم هي نفسها المسافة التي لا توجد أصلاً.. هكذا كان يشعر الأهل في الضفة البيضاء، لا حواجز ولا ملاحين. كانوا يتبادلون كسرة الخبز بقدسية، ويغتسلون في النهر كلما ذكر اسم الشاطئ. شخوص الذاكرة العابرة كانوا يتحركون في مساحة واسعة من النقاء، مساحة لا تسع إلا

الأماني المزهرة. لم يكن هناك خوف من 'أناقة القتل' أو 'دجل المظاهر'. كانت الحياة بسيطة كقطرة ندى، وواضحة كالفجر. أتذكرهم وهم يؤدون فروض الطاعة للأرض، لا للسلاطين. هذا هو الوطن الذي يسكن ذاكرتي، والذي أحاول استعادته في كل كلمة أكتبها، وفي كل صرخة أطلقها في وجه الظلام"(عناد، ٢٠٢١: ٩)يرتكز هذا النص على بنية التضاد الحاد بين النقاء الوجودي للضفة البيضاء والدنس الذي يملأ الضفة السوداء؛ حيث يتلاشى مفهوم المسافة العازلة بين الأهل ليعم التواصل الروحي الخالي من الحواجز والملاحين، فتكتسب كسرة الخبز والاغتسال في النهر أبعاداً قدسية تعبر عن طهارة العيش والمساحات الواسعة الواعدة بالأماني المزهرة، كما يتطهر هذا الفضاء تماماً من مظاهر أناقة القتل أو دجل المظاهر السائدة في الحاضر، لتغدو الحياة واضحة كالفجر وبسيطة كقطرة ندى، فتظهر الشخصيات العابرة في حالة انسجام فطري وهي تؤدي فروض الطاعة للأرض المقدسة بعيداً عن الخنوع للسلاطين، إن هذا المشهد يمثل الوطن البديل واليوتوبيا التي تسكن وعي السارد، والتي يحاول بعثها وترميمها عبر فعل الكتابة والصرخات الموجهة ضد الظلام المحيط به."كنتُ صغيراً جداً.. لكنني أتذكر العمة وهي تنسج الحكايات من خيوط الشمس. كانت شخصية عابرة في زحام الأيام، لكنها كانت تحمل في يدها مفتاح الضفة البيضاء. حكاياتها كانت ملاذنا من برد الخوف، وكانت صوراً من عالم لا نعرفه إلا في أحلامنا. هؤلاء الشخوص العابرون هم الذين صنعوا مخيلتنا، هم الذين غرسوا فينا حب 'الكوخ الأبيض' والنقاء. رحلوا ورحلت معهم الحكايات، وبقينا نحن نواجه 'فوضى الروح' و'الأناشيد اليابسة'. الذاكرة تبقينا سجناء لتلك اللحظات الجميلة، وتجعلنا نرفض واقعنا القبيح، ونبحث عن مخرج يقودنا إلى تلك الضفة التي لا تموت فيها الحكايات"(عناد، ٢٠٢١: ١٧).يستحضر النص شخصية العمة كرمز مركزي للذاكرة الشفهية والرحم الثقافي والقصصي الذي يشكل وعي الطفولة، فسيميائياً يمثل نسج الحكايات من خيوط الشمس دلالة مكثفة على النور والدفء والأمل اللذين يغمران فضاء الضفة البيضاء، حيث يغدو الكوخ الأبيض رمزاً للنقاء المطلق، إذ كانت هذه الحكايات بمثابة الدرع الحامي والملاذ الآمن من برد الخوف المستقبلي، ومفتاحاً لولوج عوالم الأحلام النظيفة، ويبرز التشظي حاداً عند رحيل هؤلاء الشخوص وغياب حكاياتهم، ليبقى السارد وحيداً في مواجهة فوضى الروح الراهنة وأناشيدها اليابسة، فتتحول الذاكرة في الختام إلى قيد ممتع يبقي الذات سجينة تلك اللحظات الجميلة، مما يدفعها لرفض واقعها المأزوم والبحث المستمر عن مخرج يعيدها إلى ضفة الحكايات التي لا تموت."يا وجعاً أكلت منه السنين الوجع.. مسحتُ وجهي في وجه الماضي، فاستيقظت صور الراحلين. في الضفة البيضاء، لم يكن الألم صمتاً، بل كان أنيناً يجد من يسمعه. شخوص الذاكرة العابرة كانوا يتقاسمون الوجع كما يتقاسمون الخبز، فكان الألم يخف، والضياع يتلاشى. أما هنا، فكل واحد منا يحمل وجعه كالسجن، ويواجه مصيره وحيداً. الذاكرة هي المكان الذي نلتقي فيه بالذين فقدناهم، ونستعيد فيه إنسانيتنا التي سحقها الملاحون. هي الضفة التي لا يسجل فيها الجميع بـ 'إسعافاتها الغرامية'، بل بصدق انتمائهم للأرض وللقمح وللصرخة الأولى. وداعاً أيها الحاضر، أهربُ إلى بياض ذكرياتي حيث لا يزال أبي يحرث الأرض، وأمي تنتظرني بالحب"(عناد، ٢٠٢١: ١٧).يختتم النص السردية بتأكيد حاسم على أن الذاكرة هي الفضاء الوحيد المتبقي لاستعادة الإنسانية المسحوقة، حيث يمتزج وجع السنين بوجع الماضي في محاولة لاستثارة صور الراحلين، فتتميز الضفة البيضاء بأن الألم فيها لم يكن صمتاً معزولاً، بل كان أنيناً تشاركياً يخف وقعه ويلاشي الضياع بفضل تقاسم الوجع والخبز مع الآخرين، حيث يقارن السارد بين هذا التلاحم القديم وبين الحاضر الفردي الكابوسي حيث يستحيل الوجع إلى سجن شخصي يواجهه الكائن وحيداً، إذ يرفض النص الزيف المؤسساتي للإسعافات الغرامية منتصراً لصدق الانتماء البدائي للأرض والقمح والصرخة الأولى.

المبحث الثالث: الضفة الثالثة: جدلية الخلاص والعدم.

تُمثّل الضفة الثالثة برزخاً وجودياً معقداً تتصارع فيه تطلعات الكائن البشري بين الرغبة العارمة في الانعتاق والنجاة، وبين السقوط في هاوية التلاشي والفراغ المطلق، حيث تُمثّل جغرافية المتخيل التي تولد من رحم المعاناة، إذ تقف الأنا على الحد الفاصل بين البحث عن معنى يُنقذ كينونتها من الضياع، وبين الاستسلام لعدمية تفكك وعيها بالواقع، فتصبح الضفة الثالثة تجسيداً لجدلية أزلية تحاول فيها الذات صياغة مسارها الخاص بعيداً عن حتميات الانكسار، فالذاكرة هي التجربة المتحققة بمعنًى عميق، تتأثر بقوته أعماق الروح التي تتوهّم من خلال هذا المعنى المرجعي فتلوذ بالذاكرة وتستظل بحماها؛ كما وأنّ للذاكرة كتاريخ مكتوب معنى حيوياً، لأنّ الأفعال الإنسانية هي المصدر الأساس المنتِج للمعنى، وتستمر هذه المعاني في التدفق والتوارث على مدى أجيال متعاقبة، حيث يتم الشعور بهذا الاستمرار التاريخي في تجربة الإنسان الحية للزمن باعتباره بناءً منظماً ومترابطاً يتشكل كمستقبل وحاضر وماضٍ، وهو أمر يفوق بكثير مجرد التتابع الآلي المتسلسل؛ إذ إن تجريب الزمن بوصفه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً يرفض الاكتفاء بالوقت كسلسلة متلاحقة من الآنات المتساوية ذات الحجم الواحد والدلالة المشتركة (ينظر: ريكور ١٩٩٩: ٢٠١)، مما يظهر بوضوح الفرق الجوهري القائم بين التأريخ للوقائع المجردة وبين تسجيلها الآلي؛ فالذاكرة تمثل قراءة نقدية واعية لتلك الوقائع الصعبة التي تعيشها الذات بكل تقلباتها وتحولاتها، ولما لهذه التقلبات من أثر بالغ، فإنها تبرز الاختلاف القائم بين الذات والآخر بأشكاله

المتعددة، كما تُظهر الخلاف الواجب والضروري بين ما كان في الماضي وما يمكن أن يكون في المستقبل، وبين ما تحقق فعلاً وما ينبغي أن تصل إليه الذات من غايات وطموحات كبرى تحقق كينونتها، وهو أمر ضروري ومُلزِم لها. فالصراع يظل قائماً ومستمراً بفعل سطوة التاريخ، حيث تجتذب التناقضاتُ الحياتية الذواتِ والطبقاتِ باتجاهات متباينة تؤثّث لقابليّة الفقد والتملّك، مما يوقع الذات في فخ الاستلاب القهري الخارج تماماً عن إرادتها الحرة.حيث يصبح للذاكرة –باعتبارها زمناً متذكَّراً– هيمنة مطلقة وسلطة عليا على الذات، تفوق قدرتها على المقاومة، والذي دائماً ما يحاول إيجاد مخرج بديل لها نحو آفاق الخلاص والعدم (ينظر: واتس ١٩٨٦: ١٢٦)؛ لأنها تستبقي في وعيها الحي حادثةً ما، أو تلميحاً ذكياً عن نظامٍ اجتماعيٍّ قديم ما يزال قريباً في البعد الزمني، إلّا أنه يختلف تماماً ويفترق في جوهره ودلالته عن الواقع المعيش في الحاضر، ونحن في هذا الفضاء نخضع مرغمين للاستحواذ التام، والمتمثل في (استحواذ الزمن)، الذي يمكن أن يسحب أحدنا خارج حدود الوقت والوعي تماماً للحظات أو لساعات ممتدة، كلما تترابط الأفكار وتتشابك بنماذج أكثر تعقيداً وأقل وعياً؛ فتصبح الذاكرة حينها كياناً مخيفاً ومهدِّداً إذا سيطرت سيطرة مطلقة على المضارع (الواقع المعيش) وعلى المستقبل، بوصفهما خطرين جداً على استقرار الذات (ينظر: واتس ١٩٨٦: ١٤٧).بهذا فإن التاريخ الكوني الواجب تفسيره وفك شفراته ينزع المشروعية التامة عن الحاضر، ومن هنا يجب أنْ يُنكَر ويُرفَض؛ ولكن لأن هذا التفسير الفلسفي وهذا الإنكار المعرفي يُناقضان بالضرورة عمل المشروعية المعياري، الذي يشكل الأساس المتين لممارسة السرد الكبير وتوجيهه (ينظر: ريكور ١٩٩٩: ١٣٢)، والمقصود هنا هو دور الذات المحوري وإسهامها الحقيقي في بناء الحياة وصناعة التغيير، وهذا ما يقودنا في نهاية المطاف إلى استنتاج أنَّ للذاكرة دوراً كبيراً وحاسماً في تشكيل بنية الهوية الإنسانية، وبالتالي تسيير دفة الحياة اليومية وتوجيه عملية الانتقالات والتحولات التي تمر بها الذات في رحلتها الطويلة للبحث عن التوازن من جهة، وتحقق الممارسة الفعلية والواقعية للحياة في فضاء الوجود من جهةٍ أُخرى، حيث تتجلى الضفة الثالثة كأفق رمزي تختزل فيه الذات صراعها الأبدي ضد التلاشي في غيابات الفراغ والاستلاب القهري، كما أن فك ارتباط الحاضر بسطوة الماضي المخيف يغدو ضرورة ملحة لاستعادة الهوية وتأكيد فاعلية الكائن في بناء واقعه، لتظل هذه الضفة محوراً تتوازن عنده انكسارات الروح وتطلعاتها، ومساحة حرة تلتقي فيها إرادة التغيير مع آمال النجاة المستحقة وسط تناقضات الكون المعقدة."الضفة الثالثة.. أنت لا تصل إلى هنا.. يُسجل الجميع بإسعافاتها الغرامية، نكون بسلام، في ضفة العدم، وعلى الرغم من كثرة الكافرين بظلها، وزهرها الذي لا ينجذب، قوافل من الدعاء الدائم تحتها، يستفيء بها الذين لا يملكون وطناً ينتظرهم ليحبوه، والذين شبعت بهم مسامات العمر قبل الوصول إلى هنا، يا ضفة هادئة كأنها الموت، وواسعة كأنها الخلاص، هنا حيث تنتهي الكلمات ويبدأ الصمت الأزرق الذي لا يكسره أنين الملاحين ولا سياط الذكريات. هل هو العدم الذي ننشده؟ أم هو الوجود في أرقى صور تجرده؟ نحن لا نهرب من الموت، بل نهرب إليه لننجو من حياة تشبه الموت. الضفة الثالثة هي المرآة التي نرى فيها وجوهنا بلا ملامح مشوهة، هي الهدوء الذي يسبق العاصفة النهائية"(عناد، ٢٠٢١: ٥٩).يُعيد هذا النص صياغة مفهوم المكان الروائي عبر طرح الضفة الثالثة كفضاء متعالٍ يستعصي على الوصول الفيزيائي المباشر، لتتحول من مجرد حيز جغرافي إلى حالة وجودية من التجرد المطلق، إذ تتكشف سيميائية هذا المكان بوصفه ملاذاً لمن لا وطن لهم، والذين استُهلكت مسامات أعمارهم في عذابات السيرورة، ليجدوا في ظلها الهادئ خلاصاً يشبه الموت في سكينته، ووسعاً يتسع لانتفاء الألم، كما يتجلى الوعي المأزوم في النص عبر استبدال صخب الضفاف السابقة بالصمت الأزرق الذي تخرس أمامه سياط الذكريات وأنين الملاحين، مما يعني انعتاق الذات من سلطة القهر التاريخي، حيث يطرح السارد جدلية فلسفية عميقة تتساءل عن ماهية هذا العدم؛ هل هو فناء محض أم هو الوجود في أقصى درجات نقائه وتجرده؟ إن الهروب هنا ليس نكوصاً، بل هو ارتماء في حضن الموت الاختياري للنجاة من حياة مشوهة، مما يجعل الضفة الثالثة مرآة ناصعة تعيد للوجوه ملامحها الأصلية."أتركُ لكم كل شيء يخصكم صمتاً.. سأرحلُ إلى حيث لا ملاحين ولا مرافئ تضيق بأنفاسي. الضفة الثالثة تناديني، ليس لأنها أجمل، بل لأنها الأبعد عنكم. في العدم أجدُ كمالي، وفي الصمت أجدُ صوتي الذي بح من كثرة النداء في ضفافكم السوداء والبيضاء. الهروب ليس جبناً، بل هو اكتشاف للمساحة التي لم يلوثها صخبكم. أنا الآن شظية تتطاير نحو الأفق، لا يربطني بالأرض سوى خيط واهن من ذكريات عابرة. الضفة الثالثة هي اليقين الوحيد في عالم من الظنون، هي المكان الذي نكون فيه نحن، دون أقنعة، دون أدوار، دون حاجة لابتسامة ممسوخة. هنا يبدأ الخلاص الحقيقي، حيث لا رغبة في العودة، ولا خوف من البقاء في جوف الضفة التي تأكل نفسها بصمت مرير"(عناد، ٢٠٢١: ١٤٨)يمثل هذا النص وثيقة إعلان الرحيل النهائي والقطيعة الوجودية مع الضفتين السابقتين (السوداء والبيضاء)، حيث يختار السارد الصمت ليكون لغته الأخيرة في مواجهة الملاحين ومرافئهم الضيقة، وتنبثق الضفة الثالثة هنا بوصفها النداء الأبعد والأكثر طهارة، لا لجمال مادي فيها، بل لكونها الحيز الوحيد الذي لم يتلوث بصخب الآخرين وزيفهم الاجتماعي، فيتصالح السارد مع فكرة العدم باحثاً فيها عن كماله المفقود، ومستعيداً صوته الذي بُح في فضاءات التيه السابقة، مما يرفع فعل الهروب من خانة الجبن إلى مصاف الاكتشاف الذاتي التطهيري، حيث يتحول الكائن سيميائياً إلى شظية

متطايرة نحو الأفق، متحللاً من جاذبية الأرض إلا من خيط ذكريات واهن، لتبدو الضفة الثالثة كاليقين الوجودي الأوحد وسط ركام الظنون."الضفة الثالثة.. أين أنتِ... أين الملاذ الذي وعدتِ به قلبي المتعب؟ لم يعد في الجسد مكان لجرح جديد، ولا في الروح متسع لخيبة أخرى. أرحلُ وفي كفي حفنة من تراب الكوخ الأبيض، وفي عيني سواد الضفة التي أكلت سنيني. أنادي ولكن لا صدى يرتد، فربما هي الضفة التي لا تعيد النداء، الضفة التي نكون فيها نحن دون أقنعة، دون ملاحين، ودون خوف من ضوء الشمس الذي تلاشى فجأة. هل نجد الخلاص في التلاشي؟ أم أن العدم هو قمة الحضور؟ أنا هنا في منتصف النهر، القوارب خلفي والضفة الثالثة أمامي، مسافة تفصلني عن ذاتي القديمة، وتقربني من جوهري الذي لم أعرفه يوماً. الهروب هو لغتي الوحيدة، والضفة الثالثة هي القاموس الذي يفسر معنى ضياعي الطويل"(عناد، ٢٠٢١: ١٤٩)يتشكل هذا النص من صرخة استغاثة وبحث مضنٍ عن الملاذ الموعود، حيث يعكس الخطاب السردي حالة من الإنهاك الجسدي والروحي للذات التي لم تعد تحتمل جرحاً أو خيبة جديدة، إذ يحمل السارد في رحيله هويته المتشظية الموزعة بين بياض الماضي (تراب الكوخ الأبيض) وسواد الحاضر (الضفة التي أكلت السنين)، ليمثل حالة برزخية في منتصف النهر، تتجاذبها القوارب الخلفية والضفة الأمامية، مما يبرز التساؤل الفلسفي حول ما إذا كان الخلاص يكمن في التلاشي التام، أم أن العدم هو الذروة الحقيقية للحضور الإنساني المتجرد من القيود والملاحين، إذ تغدو الضفة الثالثة في هذا السياق القاموس الوحيد القادر على تفسير دلالات الضياع الطويل، والمسافة التي تقرب السارد من جوهره الوجودي الذي حجبته الأقنعة الطويلة."أيها الملاحون.. أيها الربان.. خذوا قواربكم وارحلوا، فقد وجدتُ شاطئي الذي لا يراه أحد غيري. الضفة الثالثة ليست أرضاً بل هي حالة، هي الوقوف على حافة الهاوية دون خوف من السقوط. في العدم تذوب كل الفوارق، ويصبح الألم واللذة شيئاً واحداً. الهروب إلى الضفة الثالثة هو الصرخة الأخيرة في وجه عالم أصم. هنا، لا يسألني أحد من أين أتيت، ولا إلى أين أذهب. أنا العدم وأنا الوجود، أنا الشظية التي وجدت مستقرها في الانفجار. وداعاً لكل ما كان يربطني بالضياع، وداعاً للبحث المستمر عن ضفة لا وجود لها إلا في مخيلتي المتعبة. الآن، أغمض عيني وأترك للنهر أن يحملني إلى تلك النقطة التي يتساوى فيها كل شيء، حيث الخلاص هو الرحيل الأبدي"(عناد، ٢٠٢١: ١٥٠)

يأتي هذا النص بمثابة مواجهة مباشرة ونداء أخير ومستفز للسلطة القمعية المتمثلة في الملاحين والربان، حيث يعلن السارد عثوره على شاطئه السري والخاص الذي يقع خارج حدود رؤيتهم الفوقية، فتتحول الضفة الثالثة في هذا المنظور من حيز مكاني إلى حالة شعورية محضة، قوامها الوقوف الشجاع على حافة الهاوية دون أدنى خوف من السقوط أو الفناء، ففي هذا العدم المبتغى، إذ تذوب كل الثنائيات والضديات التقليدية؛ فيتحد الألم باللذة، وتتحول رغبة الهروب إلى الصرخة الأخيرة في وجه عالم صم آذانه عن أنين الضحايا."الآن أصبحت مفهومه أن تبقى في مكانك وأن تأتي البلايا إليك، أو أن تهرب لتدفع ثمن نجاتك. الهروب إلى الضفة الثالثة ليس تركاً للمكان، بل هو تجاوزه نحو العدم الذي لا يطاله الربان ولا ملاحوه. في هذه الضفة، لا نحتاج لقوارب، بل نحتاج لأجنحة من خيال تمكننا من التحليق فوق جراحنا. التشظي هنا يصبح رقصة أخيرة، والانكسار يتحول إلى وميض من الضوء في عتمة النهر. هل نصل فعلاً؟ أم أن الوصول هو في فعل الهروب نفسه؟ الضفة الثالثة هي السؤال الذي لا جواب له، وهي اليقين الذي يولد من رحم الشك المطلق. نحن نلوذ بها كلما ضاقت بنا مسامات العمر، وكلما شعرنا أن الشمس لم تعد تشرق لتبارك أحلامنا، بل لتعري انكساراتنا أمام الجميع في هذا المرفأ المزدحم بالخطايا والوجع المر"(عناد، ٢٠٢١: ١٢١)يؤسس هذا النص لرؤية واعية حول حتمية المعاناة وتكلفة النجاة، حيث يتأرجح الكائن بين الثبات الجغرافي المستسلم للبلايا، وبين الهروب المكاني الذي يستلزم دفع ثمن باهظ لقاء الخلاص، حيث يتجاوز الهروب إلى الضفة الثالثة هنا معناه الفيزيائي الساذج ليصبح عبوراً نحو عدمية مطلقة لا تملك سلطة الربان ولا ملاحيه القدرة على تدنيسها أو الوصول إليها، إذ تحتاج الذات في هذا الفضاء إلى أجنحة من الخيال للتحليق فوق الندوب، حيث يتحول التشظي إلى رقصة أخيرة والانكسار إلى وميض ضوء يبدد عتمة النهر الوجودية، كما يطرح النص سؤالاً حول جدوى الوصول؛ فهل يتحقق الوصول بالاستقرار أم أن الوصول يكمن في ديناميكية فعل الهروب نفسه؟ فتظل الضفة الثالثة هي السؤال اللانهائي واليقين المولود من رحم الشك، والملاذ المطهر للذات كلما ضاقت بها مسامات العمر وعرتها شمس المرفأ المزدحم بالخطايا."أتركُ لكم كل شيء يخصكم صمتاً.. سأرحلُ إلى حيث لا ملاحين ولا مرافئ تضيق بأنفاسي. الضفة الثالثة تناديني، ليس لأنها أجمل، بل لأنها الأبعد عنكم. في العدم أجدُ كمالي، وفي الصمت أجدُ صوتي الذي بح من كثرة النداء في ضفافكم السوداء والبيضاء. الهروب ليس جبناً، بل هو اكتشاف للمساحة التي لم يلوثها صخبكم. أنا الآن شظية تتطاير نحو الأفق، لا يربطني بالأرض سوى خيط واهن من ذكريات عابرة. الضفة الثالثة هي اليقين الوحيد في عالم من الظنون، هي المكان الذي نكون فيه نحن، دون أقنعة، دون أدوار، دون حاجة لابتسامة ممسوخة. هنا يبدأ الخلاص الحقيقي، حيث لا رغبة في العودة، ولا خوف من البقاء في جوف الضفة التي تأكل نفسها بصمت مرير، بعيداً عن ضجيجكم الذي لم يعد يطاق في هذا الزمن"(عناد، ٢٠٢١: ١٤٨).

يتطابق هذا النص في بنيته العميقة مع نصوص سبقته، لكنه يكتسب أبعاداً إضافية تؤكد على تعاظم وتيرة الاغتراب والرفض القاطع لضجيج العصر الراهن الذي لم يعد يُطاق، حيث يعيد السارد صياغة رحيله الصامت كفعل احتجاجي ضد الضفاف السابقة (السوداء والبيضاء) التي تضيق بأنفاسه وتستهلك صوته في نداءات عبثية لا صدى لها، إذ تتكرر سيميائية الشظية المتطايرة نحو الأفق لتعكس الرغبة في الانعتاق التام من روابط الأرض وجاذبية الذكريات العابرة التي تشد الذات إلى الوراء، وتتبدى الضفة الثالثة هنا كاليقين المطلق والوحيد المفارق لعالم مليء بالظنون والأقنعة والوجوه المشوهة والممسوخة."الضفة الثالثة.. أين أنتِ... أين الملاذ الذي وعدتِ به قلبي المتعب؟ لم يعد في الجسد مكان لجرح جديد، ولا في الروح متسع لخيبة أخرى. أرحلُ وفي كفي حفنة من تراب الكوخ الأبيض، وفي عيني سواد الضفة التي أكلت سنيني. أنادي ولكن لا صدى يرتد، فربما هي الضفة التي لا تعيد النداء، الضفة التي نكون فيها نحن دون أقنعة، دون ملاحين، ودون خوف من ضوء الشمس الذي تلاشى فجأة. هل نجد الخلاص في التلاشي؟ أم أن العدم هو قمة الحضور؟ أنا هنا في منتصف النهر، القوارب خلفي والضفة الثالثة أمامي، مسافة تفصلني عن ذاتي القديمة، وتقربني من جوهري الذي لم أعرفه يوماً. الهروب هو لغتي الوحيدة، والضفة الثالثة هي القاموس الذي يفسر معنى ضياعي الطويل، وهي المرفأ الأخير الذي لا يحتاج لربان أو ملاحين حمقى"(عناد، ٢٠٢١: ١٤٩)يضيف هذا النص بُعداً حاسماً عبر وصف الضفة الثالثة بأنها المرفأ الأخير الذي لا يحتاج لربان أو ملاحين حمقى، مما يعمق دلالة التمرد على المؤسسة القمعية للنهر، إذ يستمر السارد في بث أوجاعه المتمثلة في نفاذ مساحات الجسد والروح عن استيعاب جراح أو خيبات جديدة، حاملاً معه تراب الطفولة وسواد السنين في مفارقة بصرية حادة، حيث يكرس النص حالة الوقوف في منتصف النهر كمنطقة عبور برزخية تفصل الذات عن ماضيها المشوه وتقربها من جوهرها الحقيقي النقي، إذ تصبح الضفة الثالثة هي القاموس الذي يمنح الضياع الطويل معناه، والمرفأ الذي يتأسس على الحرية المطلقة والسيادة الذاتية بعيداً عن حماقات الملاحين وسلطتهم الزائفة، مما يجعل التلاشي قمة الحضور والتحرر."الذاكرة هي الضفة التي لا نصلها إلا بالرحيل عما نحن فيه، هي المكان الأبيض الذي يسكننا حين نسكن الكلمات. لكن الضفة الثالثة هي الرحيل عن الذاكرة نفسها، هي تجاوز الألم الذي يبقينا سجناء. الجدلية تكمن في أننا نهرب من وجع الذاكرة إلى عدم الخلاص. الضفة الثالثة هي الحل المستحيل الذي ينهي صراعنا مع 'بول ريكور' ومع التاريخ والنسيان. هي النقطة التي يتوقف عندها الزمن، ويبدأ عندها الوجود المطلق الذي لا يحتاج لتذكر أو نسيان. الخلاص الحقيقي هو أن نصل إلى مرحلة لا نحتاج فيها للهروب، لأننا نكون قد صرنا جزءاً من الضفة التي لا يطالها التغيير. وداعاً للذاكرة، وداعاً للضفتين، وأهلاً بالعدم الذي يحررنا من لعنة الحضور الدائم في عالم لا يعرف قيمة الإنسان، ولا يحترم قدسية الصرخة الأولى التي أطلقناها في وجه الظلام"(عناد، ٢٠٢١: ٧).يقدم هذا النص مراجعة نقدية وميتافيزيقية شاملة لجدلية الذاكرة والنسيان، فبينما كانت الذاكرة (الضفة البيضاء) مكاناً يُصل إليه بالرحيل عن الحاضر عبر الكلمات، تتقدم الضفة الثالثة كخطوة أبعد تتمثل في الرحيل عن الذاكرة نفسها وتجاوز آلامها، حيث تتبلور الجدلية هنا في الهروب من وجع التذكر إلى عدم الخلاص، مما يجعل الضفة الثالثة الحل المستحيل الذي ينهي الصراع الوجودي والتاريخي مع طروحات التاريخ والنسيان، إنها النقطة الثابتة التي يتوقف عندها الزمن الخطي ويبدأ عندها الوجود المطلق المتجاوز لآليات التذكر، حيث تصبح الذات جزءاً من ضفة عصية على التغيير، حيث يمثل النص توديعاً نهائياً للذاكرة والضفتين معاً، وترحيباً بالعدم الذي يحرر الإنسان من لعنة الحضور الدائم في عالم مشوه، ليعيد بذلك الاعتبار لقدسية الصرخة الأولى في وجه الظلام.

خاتمة البحث وتوصياته:

في ختام هذا البحث، نستنتج أن رواية هروب إلى الضفة الثالثة لمناضل عناد شكّلت نموذجاً إبداعياً عميقاً في تجسيد أزمة الإنسان المعاصر وصراعه النفسي، حيث نجح الكاتب عبر المباحث الثلاثة في الانتقال بالقارئ من الضفة السوداء الغارقة في سرديات الألم والتمزق، مروراً بالضفة البيضاء التي مثّلت ملاذاً مؤقتاً عبر شخوص الذاكرة العابرة، وصولاً إلى الضفة الثالثة التي تجلت فيها جدلية الخلاص والعدم كخيار حتمي للذات المتشظية، وبذلك، تعكس الرواية رؤية فلسفية وفنية متكاملة لواقع الاغتراب، مبرزةً كيف يتحول البحث عن الملاذ إلى رحلة وجودية مستمرة لتجاوز مرارة الواقع.

التوصيات:

- توسيع الدراسات النفسية: يوصي البحث بضرورة تسليط الضوء على الرواية من منظور علم النفس الوجودي لفهم أعمق لآليات التشظي الدفاعية لدى الشخصيات.
- الاهتمام بالبنية السردية: يوصى الباحثين بدراسة التقنيات الأسلوبية والزمنية التي وظفها الكاتب للتعبير عن الفوضى الداخلية والضياع.
- مقارنة أدبية: فتح آفاق جديدة لمقارنة الرواية بأعمال عربية وعالمية ناقشت ثنائية الخلاص والعدم.

ثبت المصادر والمراجع:

- أ. د. عبيد، محمد صابر، ٢٠٠٥، رؤيا الحداثة الشعرية، نحو قصيدة عربية جديدة، قراءة في الأنموذج الأردني، أمانة عمان الكبرى، ط١، الأردن.
- حيدر، احمد، ٢٠٠٨، الخروج من الاستلاب، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، سوريا.
- ريكور، بول، ١٩٩٩، الوجود والزمان والسرد – فلسفة ترجمة وتقديم، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء.
- ريكور، بول، ٢٠٠٥، ترجمة: جورج زيناتي، الذات عينها الآخر، مركز المنظمة العربية، ط١، بيروت.
- ريكور، بول، ٢٠٠٦، ترجمة، فؤاد مليت، بعد طول تأمل، السيرة الذاتية، مراجعة وتقديم، د. عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، ط١، الجزائر.
- ريكور، بول، ٢٠٠٩، الذاكرة التاريخ النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق، د. جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت، لبنان.
- سليم، فاروق أحمد، ١٩٩٨، الانتماء في الشعر الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- عناد، مناضل، ٢٠٢١، هروب إلى الضفة الأخرى، رواية، ماشكي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، الموصل، العراق.
- لوبوك، بيرسي، ١٩٨١، صنعة الرواية، ترجمة، عبد الستار جواد، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الكتب المترجمة (١٠١)، بغداد.
- منظور، ابن، ١٩٩٤، لسان العرب، مادة (ش. ظ. ى)، دار صادر، ط ٣، بيروت، لبنان، ج ١٤.
- ميرهوف، هانز، ٢٠٠١، الأبدية– الزمن في الأدب، ترجمة، أحمد الباقري، الثقافة الأجنبية(مجلة)، دار الشؤون الثقافية العامة، العدد ٢، بغداد.
- النصير، ياسين، ١٩٨٦، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- واتس، جورج، ١٩٨٦، الصيغة والزمن في الرواية، ترجمة، محمد العويني، مجلة الأقلام، العدد ١١_١٣، ت٢ – ك ١، بغداد.
- يونغ، ك. غ.، ١٩٩٧، ترجمة، نبيل محسن، جدلية الأنا واللاوعي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، اللاذقية، سورية.

Bibliography and References

- Al-Nusair, Yassin. (1986). The Problematic of Place in the Literary Text. Dar Al-Shu'un al-Thaqafiyya al-Amma, Baghdad.
- Anad, Monadel. (2021). Escape to the Other Bank (Novel). Mashki for Printing, Publishing and Distribution, 1st ed., Mosul, Iraq.
- Haider, Ahmed. (2008). Exiting Alienation (Al-Istilab). The Syrian General Organization of Books, 1st ed., Syria.
- Ibn Manzur. (1994). Lisan al-Arab. Entry (Sh. Z. Y), Dar Sader, 3rd ed., Beirut, Lebanon, Vol. 14.
- Jung, C. G. (1997). The Relations Between the Ego and the Unconscious. Translated by Nabil Mohsen, Dar Al-Hiwar for Publishing and Distribution, 1st ed., Latakia, Syria.
- Lubbock, Percy. (1981). The Craft of Fiction. Translated by Abdul Sattar Jawad, Dar Al-Rashid for Publishing, Ministry of Culture and Information Publications, Translated Books Series (101), Baghdad.
- Meyerhoff, Hans. (2001). Time in Literature. Translated by Ahmed Al-Baqeri, Foreign Culture (Journal), Dar Al-Shu'un al-Thaqafiyya al-Amma, No. 2, Baghdad.
- Obaid, Mohamed Saber, 2005, The Vision of Poetic Modernity, Towards a New Arabic Poem: A Reading of the Jordanian Model, Greater Amman Municipality, 1st ed., Jordan.
- Ricoeur, Paul. (1999). Existence, Time, and Narrative: Philosophy, Translation and Introduction. Translated by Said Al-Ghanimi, Arab Cultural Center, 1st ed., Casablanca.
- Ricoeur, Paul. (2005). Oneself as Another. Translated by George Zenati, Arab Organization Center, 1st ed., Beirut.
- Ricoeur, Paul. (2006). Critique and Conviction (After Long Reflection: Autobiography). Translated by Fouad Malit, Reviewed and Introduced by Dr. Omar Moheibel, Publications Al-Ikhtilaf, 1st ed., Algeria.
- Ricoeur, Paul. (2009). Memory, History, Forgetting. Translated, Introduced, and Annotated by Dr. George Zenati, Dar Al-Kitab Al-Jadeed Al-Muttahida, 1st ed., Beirut, Lebanon.
- Salim, Farouk Ahmed. (1998). Belonging in Pre-Islamic Poetry. Arab Writers Union, Damascus.
- Watts, George. (1986). Form and Time in the Novel. Translated by Muhammad Al-Owayni, Al-Aqlam Journal, No. 11-13, Nov-Dec, Baghdad.